

(٣٨)

العفو

إذا مرض الممثلون (١) انصرفوا عن التمثيل ، وإذا مرض المغنون كفوا عن الغناء ، وإذا مرض اللاعبون أعرضوا عن اللعب ، وإذا مرض الوزراء تعلقوا بالوزارة وتهالكوا عليها ، وشدوا أجسامهم إلى كراسيها بأمراس من الكتان كما يقول امرؤ القيس .

ومن الممثلين والمغنين من يعتزلون التمثيل ويكفون عن الغناء قبل أن تتقدم بهم السن ، ويدركهم الضعف لأنهم يعلمون حق العلم أن لكل شيء أمدا لا يتجاوزه ، وحدا لا يعده . وإنهم إن مضوا في التمثيل والغناء حتى يدركهم الضعف عجزوا وقصروا وأثاروا في النفوس عاطفتين مختلفتين : عاطفة السخط عند قساة القلوب المؤثرين لأنفسهم باللذة والمتاع ، وعاطفة الرحمة والإشفاق عند رفاق الأفئدة ، الذين يؤثرون الضعفاء بالعطف والرثاء .

(١) ٢٧ - ٤ - ١٩٣٣ عدد ٢٣٧٥

وقد رأينا الممثلة الشهيرة «مارتية» تترك بيت مولير سنة ١٩١٧ وهي في أوج مجدها ، لأنها كرهت أن تتقدم بها السن فيتحول إعجاب الناس بها رثاء لها ، أو سخطا عليها . ورأينا «سلفان» الممثل العظيم يبق في بيت مولير على تقدم سنه حتى يلقاه قوم بالرثاء ، وآخرون بالصغير والعداء .

وكذلك رأينا من رؤساء الوزارات من يحس الضعف أو تعطل صحته اعتلا لا يسيرا فيستقيل حتى لا تتعرض مصالح الدولة للخطر، وحتى لا تصبح كفايته مثارا للقال والقليل . ورأينا منهم قوما آخرين يلم بهم المرض فيطيل الإلمام ، وينزل بهم الضعف فيطيل الإقامة ، فلا يستقيلون ولا يستمعون لنصح الناصحين لهم بالاستقالة . وإنما يحتفظون بمناصبهم وكأنهم لا يكرهون أن يكون المرض لهم رفقا في طريقهم هذه التي يسلكونها في بطاء حتى ينتهوا إلى غايتها وهي اعتزال الحكم راضين أو كارهين .

رأينا من الممثلين أولئك وهؤلاء، ورأينا من رؤساء الوزارات أولئك وهؤلاء، واثارت في نفوسنا لأولئك وهؤلاء عواطف الرحمة حيناً، وعواطف الضيق بهم والسخط عليهم حيناً آخر . وكما كنا نحب أن يكره رئيس وزرائنا لنفسه أن يثير هذه العواطف أو تلك . فهذه الصحف قد أخذت أمس واليوم تعلق اضطرابه وتهافته أمام تلك البرقية التي نشرتها الأهرام أول أمس ، واستلحقها البلاغ أمس بأن صحته قد ضعفت ، وأعصابه قد وهت فأصبح عاجزا عن المقاومة ، قاصرا عن ضبط النفس والسيطرة على الأمور . ولو قد كان صحيحا قويا موفورا النشاط ، مسيطرا على نفسه وعلى غيره أيضا ، لما احتاج إلى هذا التصريح الطويل الذي أذاعه في الصحف أمس ، والذي لا يثبت شيئا ولا ينفي شيئا، ولا يدل إلا على شيء واحد، هو أن الأمور قد أفلتت منه ، وتفرقت عليه ، فلا يستطيع لها ضبطا ولا تصريفا ! والناس يزعمون أن من أشد أعراض المرض الذي نرجو أن يبرىء الله منه رئيس الوزراء ، النسيان واعوجاج التفكير، والعجز عن

حسن الاستنباط . وقد كان جماعة منهم يتحدثون أمس في تصريح رئيس الوزراء ، ولم يكونوا جميعا من خصوم الرئيس ، ولم يكونوا جميعا من أصدقائه ، وإنما كان منهم من يخاصمه ، وكان منهم من يؤيده ، ويسرف في تأييده . وكانوا جميعا ينكرون هذا التصريح ، ينكره بعضهم في سخط وهم الأصدقاء ، وينكره بعضهم الآخر في إشفاق وهم الخصوم . ووقفوا جميعاً عند آخر هذا التصريح حين يتحدث رئيس الوزراء عن أسطورة الوزارة الثومية ، فيضع لهذه الوزارة شروطا وقيودا كتلك التي وضعها السير برسي لورين منذ عام ، والتي نشرتها الافريكان ورلد ، وتحدثت عنها الأهرام ، وخاضت فيها الصحف منذ أسابيع ، والتي تحتم على الذين يميلون إلى الوزارة القومية أن يؤمنوا بالدستور الجديد ، ويذعنوا لمنفذه ، ويضعوا أيديهم في أيدي هؤلاء المنفذين ، والتي ترى أن في البلاد دستوراً يجب أن يطاع ويحترم . وأن هذا الدستور يقتضى ألا تؤلف الوزارات الثومية إلا على اتفاق مع الأحزاب البرلمانية القائمة ١

وقف هؤلاء الناس عند هذا الموضع من تصريح رئيس الوزراء ، فضحك بعضهم منه ، ورثى بعضهم له . وقال بعضهم لبعض : لقد نهض رئيس الوزراء بالحكم منذ ثلاثة أعوام ، وفي مصر دستور قائم كان رئيس الوزراء ممن أقسم بمين الاخلاص له والوفاء بحقه . وفي مصر برلمان أنشأه هذا الدستور ، وكان من الحق على كل من يؤلف الوزارات أن يتفق مع أحزابه ، ويجد في الظفر بثقته والوصول إلى رضاه . فما بال رئيس الوزراء لم يرع هذا الأصل الدستوري يوم ألف وزارته ؟ ما باله لم يذعن للدستور ولم يرع حرمة ؟ وكان قد أقسم ليدعن له ، وليرعين حرمة . ما باله لم يقم وزارته على رضا البرلمان والاتفاق مع أحزابه ؟ ما باله ألغى ذلك الدستور ، واستحدث مكانه دستورا آخر ، وصرف ذلك البرلمان وأقام مكانه برلمانا آخر ؟ أكان يومئذ يؤمن بأنه يقترف إثما ، فن أظلم من الذين يقترفون الإثم وهو يعلمون أنهم آثمون . أم كان في ذلك اليوم يؤمن بأنه إنما يأتي أمراً مباحا ، فما بال هذا الأمر يباح له ويحرم

على غيره ؟ ومن الذى زعم أن مقاييس الأخلاق والتانون والنظام تقصر على رجل دون رجل ، وعلى فريق دون فريق فترى خيراً ما يأتيه صدق باشا ، وترى شراً ما يأتيه غير صدق باشا .

إن الذين يشرعون للناس هذه السنن السيئة خليقون أن لا يغضبوا ولا يسخطوا حين يلقاهم الناس بما شرعوا لهم من شر . إن الذين يفتحون للناس أبواب الخروج على النظام والاعتداء على الدستور ، خليقون ألا يجزعوا حين يدخل الناس من هذه الأبواب التي فتحوها ، فيهبثوا أنفسهم ليحدثوا مثل ما أحدث السابقون لهم ، والدافعون لهم إلى الشر . إن الذين يعرضون للنظم القائمة فيبدلون فيها ويغيرون لا لشيء إلا لأنها لا تلائم آراءهم وميولهم ومنافعهم ، خليقون أن يعلموا أنهم يفرضون على أمة كاملة هذه الآراء الخاصة والميول الخاصة والمنافع الخاصة ، فهم خليقون أن يلقوا من غيرهم مثل ما لقي غيرهم منهم ، فضلاً عن أن تحاسبهم الأمة على ما أهملوا من منافعها وما ضيعوا من حقها ، وما أهדרوا من كرامتها .

لقد شرع رئيس الوزراء للطامعين في الحكم والمتهاكبين عليه سنة إلغاء الدستور ، وصرف البرلمان . فلا ينكر أن ينجم في مصر من أصدقائه أو من خصومه من يفعل اليوم بالدستور الجديد والبرلمان الجديد مثل ما فعل هو أمس . وما دام الطمع في الحكم والطموح إلى السلطان والجشع إلى المناصب وما تغل من ثروة وجاه ، ما دام هذا كله يبيع للناس أن يحنثوا في الأيمان ، وأن يلغوا المواثيق والعهود ، وأن يضعوا دستوراً مكان دستور ، ويدعوا برلمان مكان برلمان ، فقد فتح على الأمة باب شر عظيم ، وقد وضعت حياة الأمة على شفاهة عميقة توشك أن تتردى فيها بسياستها وأخلاقها ونظمها الاجتماعية ، إذا لم يكن لها من الصبر والثبات وضبط النفس والأمل في المستقبل والثقة بالله ما يعصمها من السقوط .

تحدث أولئك الناس بهذا كله وقال بعضهم لبعض : لولا أن رئيس الوزراء مريض لما نم على نفسه بهذا الحديث . وقال بعضهم لبعض لولا

أن رئيس الوزراء مريض لما قال في نفسه بلسانه وفي صحيفته ما يقول خصومه فيه منذ ثار بالدستور فألغاه ، ومنذ ثار بالبرلمان ففرقه ، ومنذ ثار بالحرية فألقاها في أعماق السجون وقيدھا بأثقل القيود والأغلال .

ولولا أن رئيس الوزراء مريض لما أنكر على خصومه ما أباحه لنفسه ، ولما نهى الناس اليوم عما كان يدعوهم إليه منذ أعوام . فإلام كان يدعو رئيس الوزراء حين ألف وزارته ؟ كان يدعو إلى الثورة بالدستور وكان يدعو إلى الخروج على النظام . ولو أنه دعا إلى ذلك وألح فيه قبل أن يتولى الوزارة ويظفر بنصر الإنجليز له ، وتأيدهم إياه لكان حق الحكومة القائمة يومئذ أن تقفه أمام القضاء ليسأله عن ثورته بالدستور ، وخروجه على النظام ، ولكنه فعل ذلك وهو رئيس الوزراء فعل ذلك وأزمة الحكم في يده . فعل ذلك وقوة الدولة مسخرة له فلم يستطع أحد أن يقفه أمام القضاء ، ولا أن يأخذه بما فعل . وإنما استطاع معارضوه الذين كانوا يومئذ وما يزالون ينصرون القانون ، ويؤيدون الدستور ، ويرعون حرمة النظام . استطاع هؤلاء المعارضون أن ينكروا عليه سيرته وهم ما يزالون ينكرون عليه سيرته ، وقد لقوا منه وهم ما يزالون يلقون منه شرا عظيما وبلاء ثقيلا .

بهذا كله تحدث أولئك الناس أمس . ويستطيع رئيس الوزراء أن يثق بأن الناس يتحدثون بهذا وبأكثر منه ، وأن الناس سيتحدثون بهذا وأكثر منه ما دام مستأثرا بالحكم ، مسيطرا عليه . يستطيع رئيس الوزراء أن يثق بأن الذين يزينون له موقفه ، ويصورون له أنه منتصر على طول الخط ، وأن رأى الناس فيه حسن كل الحسن ، يخدعونه ويكذبون عليه . يستطيع رئيس الوزراء أن يثق بهذا ، وأن يرجع به على نفسه وأن يفكر فيه فيطيل التفكير . وهو إن فعل لم يلم هؤلاء الذين يحلمون بالوزارة القومية ويسعون إليها إن فكروا في أن ينتهزوا الفرص ويشبوا إلى الحكم دون أن يتقدموا إليه بالمودة ، أو يضعوا يدهم في يده .

فهم لم يريدوا ذلك حين كان قوياً ، فما أجدرهم أن لا يريدوا ذلك وهو ضعيف . وهم حين يتهيأون لتنجيته عن الحكم وخلافته فيه لا يزدون على أن يفعلوا مثل ما فعل ، لأن مقياس الحكم الآن في مصر قد أصبح مع الأسف الشديد بفضل صدقي باشا وأمثاله هو القوة ، والقوة وحدها دون النظام ودون الدستور .

أما مصر التي ينجم فيها الطامعون ، ويعبث بحريتها العابثون ، ويطمح إلى إذلالها الطامحون ، فهي ثابتة في مكانها ، لا تحب الكيد ، ولا تميل إليه . وهي تكره الحكم الذي يأتي من بعيد ، لا من قريب . والذي ينشأ عن العبث بالدستور لا عن الدستور . والذي لا يكون مرآة لإرادتها الحرة ، ورأيها المستقل ، وصورة عزتها وكرامتها .

مصر هذه تكره من رئيس الوزراء ما فعل ، ولا تريد أن تفعل كما فعل ، وإنما تحتفظ بإيمانها وحقها وكرامتها . وهي واثقة أن هذه الحرب الخفية الظاهرة بين الطامعين في الحكم ، والطامعين إليه ستضعفهم جميعاً ، وستستنفد قواهم جميعاً ، وستقر الأمر بعد قليل في نصابه ، وترده إلى أهله .

فليفكر رئيس الوزراء إن سمحت له صحته بالتفكير ، وليعمل رئيس الوزراء إن سمحت له قوته بالعمل ، وليجد رئيس الوزراء إن استطاع في أن يرد عن منصبه هذه النفوس التي تتصل به وتريد أن تثب إليه . هذه النفوس التي قرأت كلام رئيس الوزراء أمس ، واعتداده بقوته ، واشترطه أن يضع الناس أيديهم في يده ليصلوا إلى الحكم ، فلم تزد على أن نطقت بهذه الكلمة التي تدل على شيء كثير من الإكبار والتقدير :
العفو ... !!